المبحث الثاني
جهود العلماء في كتابة «القواعد القرآنية»

وفيه مطلبان:

المطلب الأول
جهود المتقدمين في هذا العلم

بعد تتبعي وبحثي في هذا الموضوع – «القواعد القرآنية»– ظهر لي أمران:

الأول: أن هذا الاصطلاح متأخر، ولم يرد له ذكر في كتب المتأخرين من المفسرين بله المتقدمين[(١)].

وعليه: فهم وإن تحدثوا عما يوافق معناها؛ لكنهم لم يطلقوا عليها هذا الاصطلاح.

الثاني: أن في كلام بعض المفسرين وبعض علماء البلاغة ما يشير إلى أصول هذا الفن، أو النوع من أنواع علوم القرآن -إن جاز أن يكون نوعاً مستقراً بذاته[(٢)]- عند حديثهم عن بعض الجمل المختصرة التي يدخل تحتها معانٍ كثيرة، أو عند حديثهم عن الأمثال في كتاب الله تعالى وما جرى مجراها، أو تنصيصهم على أن هذه الآية أو الجملة من الآية تمثل سنة من سنن الله في الأمم

---

(١) ومرادي بهذا أن الجديد فيه، هو تسميته بهذا العلم «قواعد قرآنية»، لا أنه مُغفل تماماً.

(٢) بل هو خليق بهذا، فأثره وحقيقته العلمية لا تقل شأنا -فيما أرى- عن أثر الأمثال القرآنية، وقد أشار إلى ذلك د. عبدالستار فتح الله سعيد في كتابه «المدخل إلى التفسير الموضوعي» ص: (٤٣) وستأتي الإشارة إلى كلامه عن هذا العلم بعد قليل إن شاء الله.

والجماعات، ولا يخفى أن مِن أخص خصائص السنن: أطرادها، وهذا أحد خصائص القواعد كما تقدم.

وبناء على هذا؛ فإنه يمكن أن يقال: إن جهود العلماء في كتابة هذه القواعد يقسم -باعتبار تخصص القائل- إلى قسمين:

القسم الأول: جهود المفسرين، ويمكن حصر هذه الجهود في صورةٍ واحدة، وهي:

الإشارة إلى بعض هذه القواعد أثناء تفسير آيات من القرآن الكريم[(١)] بعبارات تقارب المعنى اللغوي والاصطلاحي للقاعدة، كقولهم: «وهذه سنة الله»، أو «تلك عادة الله»، ونحو هذه العبارات، التي توحي باطراد المعنى في فروع وجزئيات كثيرة، وهذه هي حقيقة القاعدة القرآنية -كما سبق تحريره-، **وأحياناً يأتي تقرير هذه القاعدة** -التي تلتقي مع الأمثال في بعض الصور- بقول المفسر: وهذه الآية جارية مجرى المثل[(٢)]، وقد سبق بعض الأمثلة.

فالباحث يستطيع من خلال قراءة كلام هؤلاء الأئمة أن يستخرج جملة من القواعد المبنية على تلكم الآيات التي فسّروها، مع أن بعضها قد يكون قاعدة ومثلاً في الوقت ذاته كما سبق.

---

(١) وإنما أخّرت ذكرها -مع أن الأمثلة عن أئمة متقدمين- لأنها أقل الصور ظهوراً في تجلية هذا العلم (القواعد القرآنية) وسبب ذلك قد تقدم، وينظر كلام د. عبدالستار فتح الله سعيد، الذي سيأتي بعد قليل آنفاً.

(٢) ولعلهم ذكروا هذا للإشارة إلى التفريق بين المثل القرآني والاصطلاحي عند البلاغيين.

القسم الثاني: جهود غير المفسرين، من علماء البلاغة والأدب:

وهذا الجهد يتلخص في عناية علماء البلاغة والأدب بإبراز أوجه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وضرب الأمثلة على ذلك، **والتي يستطيع الباحث الانطلاق منها لاختيار القواعد التي تتفق مع حدّ القاعدة القرآنية**، ويترك ما كان الملاحظ فيه بلاغياً محضاً.

ومن أجمل ما وقفتُ عليه في هذا الباب، مقدمة أبي منصور الثعالبي (ت: ٤٢٩هـ) لكتابه «الإعجاز والإيجاز»، حيث قال:

«من أراد أن يعرف جوامع الكلم، ويتنبه على فضل الإعجاز والاختصار، ويحيط ببلاغة الإيماء، ويفطن لكفاية الإيجاز؛ **فليتدبر القرآن، وليتأمل علوه على سائر الكلام** ...» ثم ساق جملة من الآيات المعجزة في ألفاظها، وعلّق عليها، ثم قال: «فصل، **فيما يجري مجرى المثل من ألفاظ القرآن، ويجمع الإعجاب والإعجاز والإيجاز**: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾...» ثم ذكر ما مجموعه ست عشرة آية، يمكن أن يستفيد الباحث منها مما يناسب حدَّ القواعد القرآنية[(١)].

(١) الإعجاز والإيجاز: (١٠-١٥)، وينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب: (١/ ١٨٦).

المطلب الثاني

في جهود المعاصرين في هذا العلم

من طبيعة العلوم عامة -ومنها علوم الشريعة- أنها تتطور في طريقة التصنيف فيها، وكلما تأخر الزمن، تظهر طرق جديدة في التصنيف، وتتنوع مسالك العلماء في التأليف، إما ابتكاراً وتحقيقاً -وهذا قليل- وإما تقريباً لعلوم الأوائل.

وموضوع «القواعد القرآنية» مما يصدق عليه هذا القول، فبالنظر إلى ما سبق ذكره من جهود المتقدمين في هذا الباب؛ نجد أنه انحصر أو كاد ينحصر حديثهم في موضوع القواعد القرآنية، على بثّه في ثنايا تفاسيرهم بعبارات مختلفة، كما سبق بيانه.

وإذا نظرنا إلى جهود المعاصرين من علماء وباحثين؛ فإننا سنجد أن هناك جهوداً لتطوير الكتابة في هذا الموضوع الشريف، ويمكن حصر هذه الجهود في أربع صور:

الصورة الأولى: وهي امتداد لجهود السابقين -التي ذكرتها قريباً-: الإشارة إلى بعض هذه القواعد أثناء تفسير آيات من القرآن الكريم:

ومن أكثر من استعمل ذلك -فيما وقفتُ عليه- العلامة النحرير الطاهر ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ)، في عشرات المواضع من تفسيره الكبير «التحرير

والتنوير»، ومن ذلك، قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٨]. «هذه الجملة تذييل للقصة والمثل، وما أعقبا به من وصف حال المشركين؛ فإن هذه الجملة تحصل ذلك كله **وتجري مجرى المثل**، وذلك أعلى أنواع التذييل»[(١)].

الصورة الثانية: التنصيص على بعض هذه القواعد وإبرازها، ومن ذلك:

صنيع العلامة السعدي (ت: ١٣٧٦) في كتابه «القواعد الحسان»، فإنه جعل من جملة القواعد في كتابه «القواعد الحسان»: قاعدة «**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**» -وهي القاعدة التاسعة والخمسون- وجعل عنوان القاعدة التاسعة والستين: «**من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه**»[(٢)]، ثم ختم كتابه بالقاعدة الواحدة والسبعين، والتي جمع فيها عدداً كبيراً من الألفاظ الجوامع، والتي أُصْطُلِحَ عليها بـ«القواعد القرآنية»، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها؛ فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية.

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ١٨٠)، والطاهر: من أكثر العلماء الذين وقفت على كلامهم استخداماً لهذا المصطلح.

(٢) وفي إدخال هاتين القاعدتين في قواعد التفسير نظر.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم؛ فإن كثيراً منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج فمنها: قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ... – ثم ساق ما مجموعُه ست وأربعون آيةً أو جزءً من آية، احتوت على ألفاظ جوامع، ثم قال –:

«**فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي يحتوي على معان كثيرة**، وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانية ولله الحمد»[(١)].

فيلاحظ أن كلام العلامة السعدي: واضح وبيّن في التنصيص على مصطلح «**القاعدة القرآنية**»، وأهمية العناية بها، والتصدي لشرحها، وبيان دلالاتها.

والعلامة السعدي **هو أقدم من وقفت له على تنصيص على هذا المصطلح**، والله أعلم.

---

(١) القواعد الحسان للسعدي: (١٤٢).

الصورة الثالثة: الدعوة إلى إفراد هذا النوع بالعناية والتأصيل والتصنيف:

وأول من وقفت على كلامٍ له في هذا، د. عبدالستار فتح الله سعيد في كتابه «**المدخل إلى التفسير الموضوعي**»، إلا أن فكرته في تقييد هذا العلم تختلف في بعض صورها عما نحن بصدد الحديث عنه، لكنها تلتقي مع أصل الفكرة في ضبط الأصول والقواعد.

وحتى يتضح هذا؛ فإنني أورد ما يُحتاج إلى كلامه، ثم أعلق عليه:

يقول: «وإني على مثل اليقين، أن جمع الآيات القرآنية الكريمة جمعاً موضوعياً، وتفسيرها على هذا النمط، مع إحصاء الألفاظ، واستقصاء المعاني، وتتبع الدلالات القرآنية في مواضعها وموضوعاتها، هذا اللون -حين تنضج مباحثه- **سيكون له أعظم الأثر في إبراز علوم قرآنية جديدة**، ودفعها نحو التأصيل، والاكتمال، بإذن الله تعالى، ومن ذلك:

علم الأصول القرآنية، وهو ابتداء أوسع شمولاً من علم «أصول الفقه» المعروف، ونعني به: الأصول الجامعة، والقواعد الحاكمة، والقوانين العليا التي تضبط كل ما يتصل بالقرآن، والإسلام من علوم وفنون.

ومن المقرر أن القرآن الكريم هو دستور محيط، **يضم في تضاعيفه هذه الضوابط الكلية الجامعة**، وقد أدرك علماؤنا هذه الحقائق من قديم، وتناولوها بالبحث والاستنباط، وسجلوها نثراً في مواضعها من العلوم الإسلامية واللغوية، ... «ثم ذكر نماذج من هذه الأصول التي تدخل تحت مسمى هذا العلم، منها:

١- كلُّ قولٍ على الله بغير علم، فهو باطل وحرام.

٢- كل استطراد وحشو لا حاجة له، فهو لغو وباطل [(١)].

٣- الإسرائيليات ضلالات لا يفسر بها القرآن [(٢)].

ثم قال : «وبهذا يتقرر لدينا أن «**الأصول القرآنية**» **علم بالغ الخطر**، جليل الأثر، ولا يستطاع تقريره في هذه العجالة، وإنما أردتُ التمثيل لا التأصيل، وقصدتُ إلى تنبيه الأذهان، ولفت أنظار العلماء الأجلاء إلى هذا العلم، عسى أن يتجرد له بعضهم بالبحث والتأليف، على نمط التحقيق والتدقيق، والتحديد والتحرير»[(٣)] ا.هـ

ومع الاختلاف في طريقة التأليف التي ذكرها الدكتور، والتي هي إلى طريقة الأصوليين أقرب منها إلى ما نحن بصدده، إلا أنها إشارة موفقة إلى العناية بالقواعد والأصول القرآنية.

وللباحث أن يجتهد في الطريقة التي يراها أجود وأقوى، وإن كنتُ أرى أن **التقعيد بذكر الآيات نفسها أجود وأقوى**؛ لأنها تتضمن الدليل والحكم،

---

(١) هذه القاعدة تحتاج إلى تحرير، ذلك أن الاستطراد الذي لا حاجة له تتفاوت الإفهام في تقديره، فإن من قرأ في كلام بعض الأئمة كابن تيمية والشاطبي وابن القيم يجد أن ثمة استطرادات في بعض كتاباتهم، لكن من يستطيع أن يقول: إنه هذا الاستطراد لغوٌ بله باطل؟

(٢) وهذا مما ينبغي تقييده، خصوصاً مع إذن الشرع في التحديث عن بني إسرائيل بما لا يخالف الشرع المطهر، وفرق بين الاعتماد عليها في التفسير، وبين الاستئناس بها، والله أعلم.

(٣) المدخل إلى التفسير الموضوعي: (٤٣-٤٨) باختصار.

بخلاف العبارة التي ينشئها العالم أو الباحث من حُرِّ لفظه، فقد يعتريها ما يعتري كلام البشر غير المعصومين؛ ولهذا فإن أقوى العبارات الموجودة في متون الفقهاء، هي تلكم العبارات التي تعبر عن الحكم الذي يريد الماتن تقريره بنص قرآني أو نبوي، كقول صاحب «زاد المستقنع» [١] «**وإذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**» [٢]، فهذه الجملة، هي بعينها نصُّ حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم.

الصورة الرابعة: إفرادها بالتأليف استقلالاً:

وهناك كتابان سلكا في تأليفهما طريقتين مختلفتين:

الطريقة الأولى: وضع عناوين، واختيار القاعدة التي يراها مناسبة لها:

ولم أقف في الساحة العلمية إلا على كتاب علمي واحد، وهو كتاب د. محمد ابن موسى الشريف، والذي سمّاه: «**معجم القواعد القرآنية**»، والحديث عن هذا الكتاب، أجمله في الآتي:

١- هذا الكتاب هو أول كتاب ينشر -فيما أعلم- مفرداً القواعد القرآنية بالجمع، فله في ذلك فضل السبق.

٢- من مزايا الكتاب: عنايته بالتقسيم الموضوعي لما رأى أنه يدخل تحت

---

(١) زاد المستقنع في اختصار المقنع: (ص٥٣).

(٢) صحيح مسلم، كتاب: (صلاة المسافرين وقصرها)، باب: (كراهة الشروع في نافلة بعد شروع المؤذن) ح (٧١٠).

هذا المسمى «القواعد القرآنية»، وشرحُ بعض الألفاظ التي قد يعسر فهمها على كثير من القراء بإيجاز [(١)].

٣- وضع المؤلف فهرساً في خاتمة الكتاب لما تضمنه كتابه من قواعد، وإن كان الفهرس قد بلغ نحو الضعف من مجموع صفحات الكتاب! فقد استغرق سرد القواعد التي ذكرها من صفحة (١٧-١٦١)، أي ما مجموعه: ١٤٤ صفحة، بينما استغرقت الفهرسة من صفحة (١٦٢-٤٠٦) أي ما مجموعه ٢٤٤ صفحة!.

٤- ضريبة السبق في التصنيف معروفة [(٢)]، فكما يحوز صاحبها شرف السبق؛ فإنه يضع نفسه موضع النقد، والنقد العلمي -إذا صحّت النية- مما يؤجر عليه الجميع إن شاء الله؛ ولذا فقد ظهر لي على هذا الكتاب بعض الملاحظات العلمية التي أرجو أن يكون في ذكرها فائدة، أوجزها فيما يلي:

لم يحدد المؤلف ضابطاً معيناً للقواعد القرآنية، ولم يُعَرِّف بها، بل غاية ما ذكره أنه قال: «عمدت إلى آيات اخترتها من كتاب الله تعالى، **ورأيتُ** أنها في

---

(١) معجم القواعد القرآنية: (١٣-١٤).

(٢) ينظر في هذا تعليق الحافظ ابن حجر: في «نزهة النظر شرح نخبة الفكر» على ابتداء الإمام أبي محمد الحسن بن عبدالرحمن الرامهرمزي (ت: ٣٦٠) بالتصنيف في علوم الحديث في كتابه: «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي»، حيث انتقده ابن حجر بقوله: «لكنه لم يستوعب»، ينظر: ص (٣٨).

لفظها ومعناها على هيئة قواعد موجزة جامعة، فجمعتها، ثم قسّمتها بحسب مواضيعها إلى مجموعات...، وإنما أورد القواعد التي لم يلحقها استثناء أو تغيير، أو تخصيص، أو نسخ، أو تكون الآية قد فُسّرت على وجوه تمنع من جعلها قاعدة، أو أيّ أمر يخل بكون الآية قاعدة»[(١)]؛ ولهذا اتسع شرطه جداً في هذا الكتاب، وكثر عنده مجموع القواعد؛ فأدخل ما لا يمكن تسميته ضابطاً بله قاعدة، بل هي آيات سيقت لبيان حقيقة شرعية، أو كونية، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

١- الله لم يلد ولم يولد[(٢)].

٢- النفع والضر بيد الله[(٣)].

٣- الذين يؤذون المسلمين لهم عذاب عظيم[(٤)].

٤- المبطلون خاسرون يوم القيامة[(٥)].

٥- اليهود ملعونون[(٦)].

---

(١) معجم القواعد القرآنية: (١٣).

(٢) معجم القواعد القرآنية: (١٩).

(٣) معجم القواعد القرآنية: (٢٠).

(٤) معجم القواعد القرآنية: (١٠٢).

(٥) معجم القواعد القرآنية: (١٢٧).

(٦) معجم القواعد القرآنية: (١٢٨).

٦- النصارى كفار بادعائهم التثليث [١].

٧- المجاهد إن استشهد أو انتصر له أجر عظيم [٢].

٨- من أسباب البلاء: البعد عن الله [٣].

٩- أمة الإسلام شاهدة على الأمم يوم القيامة [٤].

١٠- البنون من زينة الحياة الدنيا [٥].

فهذه عشرة أمثلة، تبين شدة التوسع في إدراج أمثال هذه المعاني ضمن القواعد القرآنية، والذي أراه لتجاوز هذا التوسع أمران:

الأول: أن يعمد المؤلف -وفقه الله- إلى تحرير دقيق لمعنى القواعد القرآنية.

الثاني: أن يعمد إلى جعل ما سبق ذكره من الأمثلة شواهد على قواعد كلية، لا أنها هي القواعد، والله أعلم.

ومن الملاحظات التي ظهرت لي على الكتاب، ما ألمحتُ إليه في الكلام على ما ذكره د. عبدالستار فتح الله سعيد -وهو شيخ مؤلف هذا المعجم-، من أهمية جعل الآيات القرآنية هي المنطلق في عنوان القاعدة، ثم يأتي تعليق

---

(١) معجم القواعد القرآنية: (١٣٥).

(٢) معجم القواعد القرآنية: (١٣٨).

(٣) معجم القواعد القرآنية: (١٤١).

(٤) معجم القواعد القرآنية: (١٤٨).

(٥) معجم القواعد القرآنية: (١٥٤).

الباحث بعد ذلك لبيان وجه كون هذه الآية قاعدة من القواعد القرآنية، وليس العكس؛ للسبب الذي ذكرته آنفاً، والله أعلم[١].

الطريقة الثانية: جَعْلُ القواعد القرآنية آية أو جملةً من آية ثم بيان هداياتها:

وهذا ما يسر الله جمعه في كتاب –وهو مطبوع متداول[٢]– اشتمل على خمسين قاعدة قرآنية.

وألخص منهجي في هذا الكتاب فيما يلي:

١- ذكرتُ في المقدمة ضابط القاعدة القرآنية بما تقدم في أول هذا البحث.

٢- حرصت على اختيار القواعد التي تنمي ما في المجتمع من معانٍ سامية، أو تعالج بعض المخالفات العقدية أو الاجتماعية، أو السلوكية، محاولةً

---

(١) كتب بعض الباحثين بحوثاً أفردوا فيها قواعد قرآنية في موضوعات معنية، وقد وقفتُ على بحثين:

الأول: بحث محكّم، بعنوان: «قواعد قرآنية في تربية الناشئة» إعداد الدكتور ميمون باريش، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة القاضي عياض، مراكش، العدد المزدوج ١٦/ ١٧، سنة ٢٠٠٢، ولم أطلع عليه، مع محاولتي المتكررة وبوسائل عدة، بواسطة الشبكة العالمية.

الثاني: بحث غير مُحكّم، بعنوان: «قواعد قرآنية في الدعوة إلى الله» لأخي د. حمزة بن فايع الفتحي، وهو بحث منشور على الشبكة العالمية، بناه على ذكر قواعد أنشأها من حُرّ لفظه، ثم استشهد لها، على نحو ما صنع د. عبدالستار، وتلميذه د. محمد الشريف.

وطبيعة هذه الورقة تضيق عن ذكر ما تميز به هذا البحث، وما عليه من ملاحظات.

(٢) صدر الكتاب عن مركز تدبر بالرياض، ونشرته دار الحضارة بالرياض عام ١٤٣٢هـ.

مني لتقريب شيءٍ من معاني القرآن من خلال المنابر الإعلامية التي تهيأت لي ولغيري من الباحثين.

٣- أَذْكرُ القاعدة، ثم أوضح معناها إن احتاج الأمر إلى ذلك.

٤- أذكرُ ما وافق القاعدة من آيات في بقية المواضع من القرآن -إن وجد- سواء ما وافقها في اللفظ أو المعنى.

٥- أذكر إن نصّ أحد من العلماء على أنها قاعدة سواء صراحة أو من فحوى الكلام.

٦- أذكر هدايات القاعدة الإيمانية والتربوية؛ وأحرص على تيسير الأسلوب قدر المستطاع، مع الحفاظ على اللغة العلمية، وربما ذكرتُ ما يرسخ هذه الهدايات من قصص في الحاضر أو الغابر.